أبنائهم ، وأجملهم وأقواهم ، وكانوا أحيانا يختطفونهم فيبيعونهم لمن شاء من الأمراء والأعيان والأغنياء ، فيشب الفتى فى مقامه الجديد وقد نسى قومه وجنسيته ، واندمج فى سلك أمثاله من المماليك ، تحت رعاية مملوك منهم أو أمير من الأمراء ، يقربونه إليه ، ويحبونه لولائه بعد أن يشتد ساعده فى خدمته ، فيرقونه إلى المراتب الأعلى . وعند ذلك تتطلع نفسه إلى مواطن العز ومنازل الأمراء والشرف بل إلى الملك ذاته .

لأنهم كانوا يعرفون أن أمثالهم من المماليك الأرقاء ، الذين ابتيعوا صغارا ، وربوا فى أحضان أسيادهم وملوكهم — شبوا على الفروسية والإقدام ، ووصلوا إلى أرقى مناصب الملك والسيادة — ولم يكن يخفى على صغيرهم قبل كبيرهم أن سلاطين المماليك بعد الدولة الأيوبية ، وجميع الملوك والسلاطين لم يكونوا إلا مماليك أو أولاد مماليك مثلهم .

ويمتاز البكوات المماليك ، بأنهم امتزجوا بالمصريين ، واندمجوا أكثر من سابقيهم فى الكتلة الأهلية — وقد عاشوا كدأبهم فى الحياة المطلقة ، فقليل منهم من تزوج وكون أسرة — إذ كان دينهم الحروب والفروسية ، ومعظمهم كان يموت فى ساحات الوغى وسنه لا يتجاوز ٣٥ سنة ، ومن عاش منهم عيشة هادئة ،ورضى بالزواج (وهو النزر اليسير) كان نسله يندمج على مر الأيام فى الدماء المصرية .

وكان المماليك يعيشون حياة مترفة ، فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن ، على غير عادتهم فى معيشتهم الأولى التى يغلب عليها الشظف والضنك ، وصارت حلة البك لا يقل ثمنها عما يعادل (ألف جنيه) الآن مع عظم (قيمة النقود فى تلك الأيام) ولا يمتطون إلا الخيول العربية